التحولات الثقافية فى الفكر المعاصر
(من جيل الوجودية إلى جيل الاغتراب وما بعد الحداثة)

د. محمد يحيى فرج*

ملخص

جاء اكتشاف مفهوم "الثقافة" فى الغرب بعد اكتشاف مفهوم "الحضارة" بوصفه واحداً مـن أهم المفاهيم العالمية. وقد سعى النظام الطبقى فى بداية القرن التاسع عشر إلى إقامة منظومة ثقافية جاء الاعتراف بها على أساس أنها المحك أو المقياس لثقافات هذا العصر. ظهر بعد ذلك التقسيم الحديث للعمل مواكباً تقسيم المجتمع إلى طبقات اجتماعية فى إطار حـدودها الوظيفية، بهدف القضاء على التمييز العنصرى الصارم لثقافة النظام الطبقى مع نهايـة القـرن التاسع عشر. وكان المفكرون الذين تحملوا مسئولية هذا التحول، وبخاصة الفنانـين منهم، هم فى مقدمة "الجماعات المنشقة" التى دعت إلى قيام "بوهيميا" جديدة ذات سمة ثقافية مختلفة عن منظومة النظام الطبقى. وقد سعت الثقافة البوهيمية، شيئاً فشيئاً، إلى القضـاء على الانغلاق المحكم لثقافة العصر على أساس المحك أو المقياس "العولمى" من خـلال الـتفاعل مع أحداث الواقع، والانفتاح على الآخر. أدى ذلك إلى ظهور ما يعرف بالنسبية الثقافية التى حلت محل المنظومة الثقافية للنظام الإقطاعى القديم. وأصبحت الثقافة بعد ذلك من حق الجميع. كما أدى التحول من الثقافة التقليدية إلى الثقافة الجديدة إلى ميلاد جيل جديد، أكثر عنفاً، فى وصفه بالاختلاف من رجال ونساء. وبعد الحرب العالمية الثانية ظهـرت علـى التوالى ثلاثة أجيال هى: جيل الوجودية، وجيل الاغتراب، وجيل ما بعد الحداثة. وقد جاءت هذه الأجيال مقرونة بتحولات ثقافية جديدة فى صورة موجات ثلاث: بدأت الموجة الأولى مسيرتها بعد الحرب مباشرة، وبلغت ذروتها مع بداية الخمسينيات، فى حـين بـدأت الموجة الثانية فى خلال أحداث منتصف الستينيات وبلغت ذروتها فى عام

١٩٦٨، واستمرت فى الانتشار حتى منتصف السبعينيات.وبدأت الموجة الثالثة بعد ذلك فى خــلال عقــد الثمانينيات ولم تبلغ ذروتها بعد. وتمثل الموجة الثالثة (ما بعد الحداثة) قمة التحول الثقافى فى الفكر المعاصر، متضمنة فى داخلها رسالة فحواها أن (كل شىء يمضى وينقضـــى)، ومــن أهــم سمات هذا التحول فى موجة ما بعد الحداثة: التعددية والنسبية وازدهار الحركة النسائية وتفشى الموضة.

* كلية الآداب قسم الفلسفة جامعة عين شمس.

Cultural Transformations in Contemporary Thought

Abstract

The concept of 'culture' was invented in the West, as one universal among many. Class cultures, as a rule, were almost hermetically sealed, with individuals only occasionally able to cross the borders between them. The modern division of labour, with its capacity to stratify society along functional lines, began to break down the strict segregation of class cultures at the end of the nineteenth century. Freelance intellectuals, artists in particular, were the first 'splinter groups'. These artists created a 'Bohemia' with a specific cultural flavour, a form of life of their own. The culture 'Bohemia' gradually broke up the hermetic closure of various cultures on a global scale. Yet it was only after the Second World War that the erosion of a network of class cultures became visible and cultural relativism unmistakably gained momentum. Cultural habits which had previously been exclusively class-related were now becoming generally available. The transition from traditional class cultures to modern culture was destined to give birth to the most violent generation conflict modern men and women have ever known, and this dramatic process repeats itself wherever there are still traditional class cultures. Three successive generations have appeared since the Second World War: the existentialist generation, the alienation generation and the postmodernist generation. The first wave began its career immediately after the war and reached its zenith in the early fifties. The second wave was launched by the events of the mind in the sixties and reached its peak in 1968, but continued to expand until the mid-seventies. The third movement

arose in the eighties and has not yet reached its zenith. The second movement grew out of the first, and the third from the second, not only in the sense of continuation but also in the sense of reversing the signs of the previous movement.

مُقَدِّمَة

بعد أن كان الفلاسفة - عبر تاريخ الفلسفة الطويل - لا يتحدثون إلا عن مذاهب فى الوجود والمعرفة والقيم، أعلنوا منذ وقت قريب عن التحولات الكبرى فى الفكر المعاصر التى نجم عنها مولد موجات ثقافية جديدة فى الفلسفة الغربية بعد الحرب العالمية الثانية من جيل الوجودية إلى جيل الاغتراب وما بعد الحداثة.

جاءت موجة ما بعد الحداثة فى نهاية هذه التحولات الثقافية فى الفكر الغربى المعاصر مواكبة الإعلان عن نهاية التاريخ وموت الفلسفة بمعناها الكلاسيكى التقليدى، وبخاصة بعد إعلان نيتشه - منذ قرن تقريبا - عن "موت الإله"، ومن ثم لم يكن هذا التحول "ما بعد الحداثة" فى الفكر الغربى مجرد "تقليعة" أو"بدعة" كما يتصور بعض الباحثين، بل أصبح تحولا ثقافيا عاما فى ميادين الفكر واللغة والاجتماع والفن والاقتصاد والعمارة والنقد الأدبى والمسرحى والسينمائى. .. إلخ. ولاشك فى إن كل هذه "التطبيقات" التى عرفتها موجة "ما بعد الحداثة" هى التى جعلت منها تحولا ثقافيا واسعا فى الوقت الراهن، حيث قيل عنها إنها موجة "متعددة الدلالات"، فأصبحت "موضة" الثقافة السائدة فى الغرب التى تفرض على المفكر أو الكاتب أن يستخدمها بوصفها السمة "العصرية" للثقافة الغربية.

لكن ماذا عسى أن تكون هذه "التحولات الثقافية" التى تجعل من "ما بعد الحداثة" طلاقا بائنا مع كل فلسفة كلاسيكية - تقليدية؟

تلك هى إشكالية البحث التى تتبعناها من جيل الوجودية إلى جيل الاغتراب بعد الحرب العالمية الثانية، حيث ظهرت فكرة الاغتراب على سطح الحياة الثقافية العامة، فاتخذ منها هذا الجيل وسيلة لنقد بعض الظواهر الاجتماعية مثل الاستبداد السياسى، والقهر الاجتماعى، والجمود الدينى، والانغلاق بأشكاله المختلفة. وقد جاء هذا التحول بعد أن تبين أن الوجودية لم تكن إلا ضربا من التواطؤ مع أوهام الذاتية، وأن الهدف منها لم يكن سوى الارتقاء ببعض الاهتمامات الشخصية إلى مستوى المشكلات الفلسفية، لذلك قرر المثقفون من جيل الاغتراب التشكيك فى جدوى التفلسف، والتخلص نهائيا من كل ميتافيزيقا، والتحرر من كل أيديولوجيا أو أنظمة فلسفية.

لذلك ينقسم هذا البحث إلى قسمين، بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة تلخص تعقيبنا على إشكالية الدراسة، والمناهج المستخدمة فيها.

يدور القسم الأول حول طبيعة التحولات الثقافية وأزمة الفلسفة الكلاسيكية - التقليدية فى ظل التحولات الراهنة فى الفكر المعاصر. فى حين يدور القسم الثانى حول الموجات الثقافية المعاصرة بعد الحرب العالمية الثانية من جيل الوجودية إلى جيل الاغتراب وما بعد الحداثة، مع الإشارة إلى أهم القضايا التى أثيرت فى هذا الصدد.

وفى خاتمة البحث نلخص أهم نتائجه، محاولين إلقاء الضوء على أهم المناهج المستخدمة فيه.

والله ولى التوفيق،

القسم الأول
التحولات الثقافية وأزمة الفلسفة التقليدية

* من الحضارة إلى الثقافة:

جاء اكتشاف مفهوم الثقافة Culture فى الغرب، بعد اكتشاف مفهوم الحضارة Civilization، بوصفه واحداً من أهم المفاهيم العالمية فى الوقت الراهن. وقد ارتبط هذا المفهوم بمفاهيم عالمية أخرى كمفهومى العلم Science والحرية Freedom، حيث كانت عالمية مفهوم الثقافة ذات دلالات متعددة على الدوام، وقد تضمنت هذه الدلالات جملة وتفصيلا مفهومى العلم والحرية، على سبيل المثال لا الحصر، ولم يكن المقصود بهما "العلم الغربى" أو "الحرية الغربية"، حيث يقوم الإدراك العام على أن هذه المفاهيم العامة واحدة، أو كل لا يتجزأ. وقد ساعدت هذه الدلالات على تفسير "الثقافة الغربية" التى افترضت دوما وجود عدد آخر من الثقافات المختلفة معها جنبا إلى جنب، سواء الأدنى أو الأعلى منها، أو حتى المختلفة عنها إلى حد ما. (١) وبصرف النظر عن كل من هاتين الثقافتين – الأعلى أو الأدنى – بالقياس إلى الثقافة الغربية، فإن العلاقة بين هذه الثقافات عموما كانت تساير على الدوام الظروف الراهنة، بالإضافة إلى كونها تاريخية. فالثقافات متلاحقة، يتبع بعضها بعضا، وليس من وسيلة للعودة أو الرجوع إلى ثقافة منقضية إلا فى حالة حدوث عثرة أو كبوة تدفعنا إلى استعادة الماضى أو الحنين إليه، وربما كان ذلك سبيلا للخروج بالفرد من عزلته. (٢)

إن بحث مفهوم الثقافة، مهما كان تعريفه أو تحديده، فإنه يبرز بذاته حقيقة تفردها، وعلى ذلك تتنوع الثقافات بتنوع الأمم والجماعات العرقية والشركات والمؤسسات، وتستخدم رموزاً أو دلالات متباينة إلى حد ما. (٣) وبالإضافة إلى ذلك، تتغير الثقافة عبر العصور، وتتحول من معنى إلى آخر، ومن ثم لا شىء ثابت، بل إن كل شىء يتحول ويتغير ويتجدد أو يموت. فى حين تعد الحضارة هى جملة المعانى التى تظل ثابتة فى ذاكرة الشعوب، وهى معانٍ لا يمكن أن تتحول أو تتطور، حيث إن الثابت فى الحضارة ضمن الذاكرة والموروث هو شىء جامد. وتظل المعانى القديمة قديمة هكذا، وعندما ينشأ معنى جديد تتغير المعانى كلها.(٤)

ومن ثم فإن القول بأن ثمة ثوابت فى الفكر تؤدى به إلى الجمود والتحجر ضمن قوالب وقوانين تجعله عاجزاً عن التجديد والتقدم.

*** الآلية الثقافية للقرن الجديد:**

إن القرن الحادى والعشرين هو قرن التحولات والتغيرات الجذرية فى ثقافة العالم، وهو يمثل قطيعة إبستمولوجية وإنطولوجية هائلة بين الثقافة الجديدة والفلسفة الكلاسيكية؛ حيث يبرز "المختلف" ليلغى الفكر التقليدى وعصور التسلط والارهاب.(٥) وما تمر به الفلسفة التقليدية من أزمات هو تعبير عن عجزها عن ملاحقة التطور السريع للواقع، بل وعجزها عن استيعاب ما يستجد من اكتشافات فى ميادين العلم المختلفة، وبخاصة بعد أن شهد العقد الأخير من القرن العشرين بداية حقبة جديدة فى تاريخ الإنسانية يمكن عدّها حقبة الثورات والتحولات الكبرى، سواء على مستوى التوجهات الحديثة التى عرفتها المجتمعات البشرية، أو على مستوى صيرورة الفكر والمعارف والعلوم. (٦)

لقد قضت الثقافة بمفهومها الجديد على خرافة الموروث، والممكن الأنطولوجى وقدسية المجهول، لتضع مكانها جميعاً المعلوماتية والكمبيوتر الذى تفوق على الإنسان التقليدى. ومن هنا أدى تقدم العلوم المعرفية والمعلوماتية والآلات المفكرة والروبوت إلى جعل الحقيقة فى قلب هذه العلوم، ولم يعد الإنسان يبحث عنها خارج الخطاب العلمى أو خارج عقله المفكر، بل أصبحت فى ثنايا خطابه وداخل نصه وأحكامه العلمية والعقلانية. (٧)

وما زال الجدل دائراً بين مفكرى علم الاجتماع حول ما إذا كانت المؤسسات الاجتماعية هى مصدر الثقافة التى تمثل القيم والمعتقدات، أو المنتجات العقلية عموماً، أم أن الثقافة هى أساس البناء الاجتماعى. وعلى ذلك ينظر إلى الثقافات بوصفها عوالم مغلقة، فإن ظلت مغلقة أو بدت هكذا، جاء البحث فيها اعتماداً على معالمها التى تميزها، ومن ثم تكون معرضة للهجوم والنقد من قبل المحدثين أو المثقفين الغربيين. (٨) وينطبق هذا الرأى على الثقافات الأجنبية أو المغايرة Alien Culture التى تتزامن بنيوياً مع الجماعات الثقافية فى البلاد المستقلة فى ظل الرأسمالية المبكرة، حيث كانت النخبة أو طبقة الأغنياء أو الطبقة الحاكمة،

بالإضافة إلى الطبقة المتوسطة وطبقة الفلاحين، شكلاً من أشكال الحياة التى يمكن تمييز بعضها عن بعض على نحو تام. إن مناقشة التدنى الثقافى مقابل التفوق الثقافى بات واضحاً إذن من قبل الآراء المعارضة التى نشأت مع الارستقراطية وطبقة النبلاء "فى إنجلترا"، ومع وجود المرأة البورجوازية. [٩]

إن الإدراك الكامل بأن كل ثقافة متفردة، وأن الحياة ليست إلا تغيراً أو تحولاً – وهو الموقف الفلسفى الذى تبنته النزعة التاريخية فى القرن التاسع عشر، والذى أصبح أحد مسلماتنا الأساسية المعاصرة – كان ولا يزال فكرة أحدثت فى العقول صدمة، وهو مما أدى إلى الهجوم عليها. [١٠]

* المنظومة الثقافية للقرن التاسع عشر:

من أهم السمات التى تميزت بها ثقافة النظام الطبقى – التى سادت أوربا فى القرن التاسع عشر – أن الإنسان، فى ظل هذا النظام، استمد إحساسه بشخصيته وذاته من الدور الاجتماعى الذى كان يقوم به، وهو دور محدد سلفاً وموروث، فثقافة السيد هى الثقافة العليا منذ الميلاد وتظل هكذا، فى حين أن ثقافة العبد هى الثقافة الدنيا منذ الميلاد وتظل هكذا أيضاً. ولاشك فى أن التحديد المسبق للدور الثقافى الاجتماعى الذى ينبغى على الفرد الدخول فيه والتعين به، إنما يقضى على قدرة الفرد على المبادأة والتغير والتطور، ومن ثم على تحقيق الذات بصورة حرة أصيلة. [١١] لذلك كان هذا النظام بعيداً عن الواقع، ومن أهم المشكلات التى واجهته عدم القدرة على المزج بين الثقافات، وعد ثقافة السيد هى المحك الوحيد بوصفها الثقافة العليا. [١٢] ولقد عبر هنرى جيمس Henry James أحد مؤرخى هذه الحقبة عن روح المقاومة لمحاولة المزج بين الثقافات. [١٣]

هكذا تقوم المنظومة الثقافية للنظام الطبقى فى خلال القرن التاسع عشر على قيم أخلاقية صارمة تعكس الطبقات الاجتماعية المؤسسة على معايير العرق أو النسب المقدس (النبيل)، وتوقف المكانة الثقافية الاجتماعية للفرد على مدى انتمائه الوراثى لمنظومة القيم وانصياعه الكلى لها، مع دور مركزى حاسم للأسرة النبيلة التى تتمتع بالثقافة العليا، بوصفها نواة اجتماعية للتضامن العضوى، فى إطار قيام هذه الثقافة على تمجيد الماضى، واحترام التقاليد وتراث الأجداد وأولوية المقدس. [١٤]

* التحول إلى ثقافة بوهيمية جديدة:

ظهر مع نهاية القرن التاسع عشر التقسيم الحديث للعمل أو الجهد البشرى عن طريق تقسيم المجتمع إلى طبقات اجتماعية تواكب حدودها الوظيفية، وذلك بهدف القضاء على التمييز العنصرى الصارم لثقافات النظام الطبقى التى راحت عنها مسيرة التجديد والابتكار. (١٥) كان المفكرون، مع نهاية هذه الحقبة، وبخاصة الفنانين منهم، هم فى مقدمة "الجماعات المنشقة" Splinter Groups على هذا النظام الذى سيطرت عليه النخب التقليدية التى دعت إلى شحذ المخزون الثقافى الذاتى وإحياء التراث وتمجيده، واستلهام الماضى لمواجهة متطلبات الحاضر.(١٦)

لقد دعا المفكرون المنشقون على هذا النظام إلى ابتكار "بوهيميا Bohemia" جديدة لحياة ثقافية واجتماعية مختلفة تقوم على معايشة الحاضر واستلاب الماضى، بعيداً عن أية بورجوازية أو أى نظام طبقى آخر؛ إذ إن البوهيمى يفعل ما يشاء ويستنتج لنفسه ما يحلو له أو يراه. (١٧) وقد سعت الثقافة البوهيمية، شيئاً فشيئاً، إلى القضاء على الانغلاق المحكم للثقافات اعتماداً على المحك العولمى Global من خلال فاعلية الأحداث الجارية، وهو ما أخذه البوهيميون بشكل مطرد عن بعض العصور حول القضايا الفنية، وأحكام العلم والقضايا المطروحة فيه، والمبادئ الأساسية التى يقوم عليها، وما يمكن وصفه بالمغاير أو المخالف فى بعض البلاد الأخرى. حيث بات الاختلاف واضحاً بين الذين يعيشون الآن بجزيرة جوجين Gauguin و البدائى الشهم أو النبيل الذى كان يعيش فيها. (١٨) ومن هنا أصبح الرأى القائل بأن "التحول" هو أحد مقومات الحياة، إن لم يكن هو المقوم الوحيد، أصبح هو الرأى السائد. (١٩)

* نهاية المنظومة الثقافية للنظام الطبقى:

بعد الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩م قضى نهائياً على منظومة ثقافة النظام الطبقى، وازدادت مهمة المفكرين صعوبة وإلحاحاً، وبخاصة بعد أن ظهر واضحاً ما يسمى "بالنسبية الثقافية" Cultural Relativism؛ إذ أصبح كل شىء فى تغير مستمر، ولم تعد الحياة ممكنة إلا فى ظل النسبية والسخرية من كل شىء أيضاً. ومن ثم أصبح من الصعب الاختيار بين أشكال الحياة والأنماط الثقافية التى

يحتذى بها، أو التفضيل بينها، وبخاصة من قبل جيل الشباب، كما أصبحت العادات الثقافية التى ارتبطت عموما من قبل بالنظام الطبقى متاحة للجميع.[٢٠] بالإضافة إلى ذلك، نلاحظ خلال هذا العصر ظهور "ثقافات أخرى" تقوم على اقتباس معطياتها عن أنماط سلوك الثقافة الغربية وعاداتها، تلك الثقافة التى تعيش عالماً متغيراً على الدوام. وكان ظهور التقسيم الوظيفى للعمل أو الجهد البشرى واحداً من أهم عوامل هذا التطور، بالإضافة إلى ظهور الطبقة المتوسطة، ورفض الحياة داخل المستعمرات، وإزالة الحدود بين وسط أوربا وشمالها. [٢١]

وهنا يمكن مناقشة أوضاع المعانى institutions of Significations باستخدام التصور أو التخيل، وذلك باقتباس عبارة كورنيليوس كاستورياديس C.Castoriadis – إذ يتحدد لنا ثلاث موجات Waves متميزة، يمكن من خلالها اكتشاف معانٍ جديدة متخيلة عن وسائل تكوين الحياة الثقافية بعد الحرب العالمية الثانية، خارج التاريخ الذى أصبح هو الآخر مجرد ظاهرة ثقافية. [٢٢] مع ملاحظة عدم التقليل من شأن بعض الاتجاهات النظرية مثل البنيوية Structuralism التى يمكن أن تؤثر، إلى حد كبير، فى نظرتنا للعالم. بالإضافة إلى التركيز على الآراء الخاصة بالعالم، والفلاسفة الذين قادوا الحركات الثقافية فى فكرنا المعاصر. ونظراً لتغير أنماط الحياة داخل هذه الحركات، ظهرت مجموعة جديدة من الثقافات خاصة بالحياة اليومية، كان الهدف منها الخلق والإبداع الذى اتصف بالبطء أحياناً [٢٣].

لقد استمد جيل الشباب من الرجال والنساء روح المبادرة من الجيل السابق عليه، منذ قيام الثورة الفرنسية التى عملت على إلغاء النظام الطبقى، وأقامت محله النظام الاقتصادى والسياسى للطبقة الوسطى، وعملت على إطلاق الصناعة من عقالها. [٢٤] بل شجعت الحركات القومية فى أوربا، وهى الحركات التى كانت تلتمس ما يساندها فى الدراسات القائلة بتفرد كل ثقافة قومية. وإزاء الأنماط المميزة للعمل أو الجهد البشرى، والطموح، والقدرة على التخيل فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، لم يكن جيل الشباب خلال هذه الحقبة مشابها بشكل مباشر للأجيال السابقة عليه. ومن هنا أصبحت الأنماط الثقافية مختلفة على نحو ملحوظ من جيل إلى جيل. وعلى الرغم من الجهود التى أسهم بها المفكرون والفلاسفة وعلماء الاجتماع والكتاب والفنانون فى وضع سياسة هذه الحركات الثقافية والإعلان عن مطمحهم، فإن جيل الشباب الذى أخذ يخاطبهم، معلناً عن طموحاته وملاحظاته التى عبر عنها، كان

مختلفاً إلى حد كبير عن هذه الجماعات المنشقة أو الخارجة على البورجوازية، سواء الأوائل أو المتأخرون منهم، أو ما كان يعرف بالبوهيمية.[٢٥]

لم تهتم الحركات الثقافية بعد الحرب العالمية الثانية بالأفكار القديمة أو المبتذلة عن الحياة الفنية، ولم يكن ما هو غريب أو استثنائى فى نظرها شيئاً فنياً، بل بالأحرى كان وجودياً Existential. وشيئاً فشيئاً، نظرت هذه الحركات إلى نفسها بوصفها نخبة سياسية جديدة. وسواء أكان اتجاهها سياسياً أم غير ذلك، فإن هذه الحركات لم ترتبط فى سعيها بالنخب المتغيرة. [٢٦]

*** تقسيم العمل وظهور جيل الشباب:**

تعد كلمة "شاب" Young فى المجتمع الذى اتصف إلى حد كبير بالتقسيم الوظيفى للعمل أو الجهد البشرى مرادفة لمفهوم "ما قبل الوظيفة" أو سابق عليها Prefunctional. وبعبارة أخرى أصبح كل شخص بلا وظيفة، داخل تقسيم العمل شاباً أو ناشئاً Young. وقد سعت الحركات الثقافية – الشبابية إلى جذب انتباه جيل الشباب وضمهم إليها من الأوساط الاجتماعية المختلفة، بصرف النظر عما إذا كانت وظيفتهم فى المستقبل أكاديمية أو اجتماعية، تعمل من داخلها أو بدافع خارجى .. وهلم جرا. إن الاتجاه نحو الوحدة العضوية للكيان الاجتماعى الذى شغل اهتمام الحركات الثقافية الواسعة، بات واضحاً بكل المقاييس، كما أصبح الاتجاه الثقافى للفتى الناضج ضرباً من الحماس الخصب، وثيق الصلة بالموضوع ذاته. [٢٧]

كان الوجود قبل الوظيفى فى الوقت ذاته وجوداً سابقاً على التكوين الطبقى، ومن ثم أقر بصحة أشكال الحياة التى يمكن تطويرها عن طريقه، فصارت تخلو – من ثم – من مظاهر الفكر الكلاسيكى – التقليدى. لذلك لم تكن الوظيفة القائمة على الأداء الكفء كافية لأن تشكل مقدماً وسائل الحياة المعيشة، كما فعل البورجوازى أو الصانع. ولعل هذا هو السبب فى أن عامة الناس لا يمكنهم تجنب الآثار الناجمة عن الثقافة الشبابية، طالما أنهم قد حسموا المسألة فى الوظيفة الاجتماعية [٢٨]؛ أن ثمة عناصر خاصة بالثقافة الشبابية يمكنها أن تتواصل فى تشكيل أساليب أو طرق حياتها كما هو الحال عند الراشدين. ويمكننا التحقق بالفعل من وجود مثل هذه الحالات.

لقد أدى التحول من الفلسفات الكلاسيكية إلى الثقافة الحديثة Modern Culture إلى ميلاد جيل جديد أكثر عنفاً فى وصفه بالخلاف من رجال ونساء صارت المعرفة لديهم متجددة فى كل وقت، وتتكرر هذه العملية الدرامية – أو هذا التحول – من تلقاء ذاته كلما ظلت هناك ثقافات تقليدية كلاسيكية. ومن ناحية أخرى، استطاع جيل السلف من الآباء والأمهات إحراز بعض التقدم خلال الحركة الثقافية الجديدة، وكان الخلاف معتدلاً إلى حد ما بين هذا الجيل وجيل الخلف من الأبناء الشباب، وذلك على الرغم من رفض الجيل الأول بعض القيم الشبابية ووسائلهم الجديدة فى الحياة. إن القضاء على الخلاف أو التعارض بين جيل وآخر هو إشارة إلى أحد المتغيرات المتعددة التى يتم عن طريقها تطويق الحركات الثقافية على وجه العموم. (٢٩)

القسم الثانى
التحولات الثقافية بعد الحرب العالمية الثانية

* الأجيال الجديدة والموجات الثقافية الثلاث:

يمكن تقسيم الأجيال التى تعاقبت بعد الحرب العالمية الثانية إلى ثلاثة أجيال؛ وهى على التوالى: جيل الوجودية، وجيل الاغتراب، وجيل ما بعد الحداثة. (٣٠) فى الوقت الذى تعاقبت فيه الموجات الثقافية الجديدة المصاحبة لهم فى صورة موجات جاءت مصادفة، ولم يكن هذا الأمر عسيراً أمام عقل الجيل الجديد الذى بلغ مرحلة الوعى والنضج، محاولاً خلق أو ابتكار نمط جديد متخيل لتنظيم سلوك المجتمع، وذلك قبل إحساسه بالقدرة على حمل لواء العلم عن الجيل السابق.

بدأت الموجة الوجودية مسيرتها عقب الحرب مباشرة، وبلغت ذروتها مع بداية الخمسينيات، حيث عبرت الوجودية بشكل واضح عن الأزمة العامة لمبادئ وقيم مرحلة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، كما وضعت الثقافة البورجوازية بكل قيمها وحقائقها موضع التساؤل، وعدّت مشكلة الإنسان هى المشكلة الأساسية (٣١)، وعلى ذلك كان البحث المستمر والمكثف عن الذات والذاتية المشتركة والتاريخية والوجود الأصيل .. وهلم جرا.

لقد نجحت هذه الموجة فى كسر إطار الدوائر الضيقة التى انحصر فيها الفلاسفة المحترفون، لتمارس تأثيراً ثقافياً أوسع، إما بالمساعدة فى التعبير عن روح الثقافة أو بنقدها، وكان أثرها بارزاً إلى حد كبير فى معظم فروع المعرفة، والكثير من الفنون .. (٣٢)

فى حين بدأت الموجة الثانية خلال الأحداث التى جرت فى منتصف الستينيات، وبلغت ذروتها فى عام ١٩٦٨م، واستمرت حتى منتصف السبعينيات، وهى ما تعرف بموجة الاغتراب Alienation. (٣٣)

ظهر جيل الاغتراب فى انفصال الشخصية عن المجتمع، وانعزال الأنا عن الآخر، وبعبارة أخرى فى اغتراب الوعى الإنسانى عن وعيه هو ذاته. ولهذا كانت التشاؤمية العميقة من أهم سمات هذا الجيل: إحساسه بنقصه، وبضعفه، وباحساسه بالمأساة، وعدم الأمل، والخوف .. (٣٤)

أخيراً بدأت الموجة الثالثة، وهى ما تعرف بموجة ما بعد الحداثة Postmodernism، فى خلال فترة الثمانينيات، ولم تبلغ ذروتها حتى الآن. وتعد هذه الموجة على قمة التحولات الثقافية العالمية الخاطفة فى السنوات الأخيرة من القرن الماضى، وما حققه العلم والتكنولوجيا من تقدم ملحوظ فى تلك المرحلة، وسقوط الثقافات التقليدية، وإعادة النظر فى معظم القيم السياسية والأخلاقية والإبستمولوجية التى كانت سائدة. وبخاصة بعد أن أصبحت فكرة "اليقين" نفسها فكرة غير يقينية بعد انهيار مجموعة من الحقائق والقيم العليا التى قيل عنها كثيرا إنها قيم ثابتة ودائمة، تصلح للإنسان فى كل زمان ومكان. (٣٥)

أقلعت الموجة الثانية عن الموجة الأولى، والثالثة عن الثانية، فى حين اتسم كل منهما بالدوام والاستمرار، مع اختلاف دلالات كل موجة عن الموجة السابقة عليها. وفى حال استجابة الواحدة للأخرى، كانت كل موجة تواصل تعبيرها فى صيغة عالمية عن ثقافة الجنس البشرى كما هو الحال فى الحداثة Modernity(٣٦) التى ظهرت فى صورة مفاهيم جمالية وأساليب فنية ومعارضة الواقعية الكلاسيكية والرومانسية، والدعوة إلى التحرر التام من الموروث القديم فى الفن، وهو الأمر الذى جعلها تصب ضمنياً فى نظرة ثقافية أكثر اتساعا هى المركزية الأوربية. (٣٧)

كما سعت كل موجة إلى إثارة دوافع جديدة للعلاقات المتبادلة بين الأجيال. ولم تكن الموجة الثالثة منبتة الصلة تماماً عن الموجة السابقة عليها، وذلك على الرغم من أن التحول البنيوى للعلاقات القائمة بين الأجيال أصبح يمثل نمطاً آخر للحياة اليومية؛ وهو ما دفعه إلى الاتجاه بها نحو ما يسمى بالنسبية الثقافية Cultural Relativism. (٣٨) وقد رأى علماء الاجتماع من أمثال كارل مانهايم أن المعرفة صارت نسبية بحسب الوضع الاجتماعى للفرد العارف، أو ارتباطها بهذا الوضع. وعلى ذلك يكون وضع الإنسان الاجتماعى والثقافى هو الذى يحدد ما يمكنه معرفته. (٣٩)

إن هذه المفاهيم مثل موجات وأجيال هى مفاهيم أكثر دقة من مفهوم الحركة Movement، وذلك على الرغم من بزوغ الموجات عن الحركات الثقافية والاجتماعية، واستمرار بعض الحركات من خلال الأجيال بشكل مباشر، وليس من خلال تمثلها داخل الموجات؛ مثل الحركة النسائية Feminism بوصفها إحدى حركات النخبة التى دعت إلى المساواة الاجتماعية والحرية وإلى إقامة علاقات أعمق

بين النساء والرجال. (٤٠) وفى ذروة هذه الموجات تميل بعض الحركات إلى التجانس معها، ولا تسعى قط إلى الانفصال عنها إلا عندما تكون فى حالة وسط أو بين بين Intermediary. وإضافة إلى ذلك، لا توجد حدود للموجة، بل هى متسعة إلى حد كبير عن المجموع الكلى للحركات التى ينبثق بعضها عن بعض حتى بلوغ ذروتها. وعادة ما تواجه الحركات بعض المقاومة من حركات أخرى مضادة، فى الوقت الذى تكشف فيه هذه الحركات المضادة عن نفسها من خلال الموجة التى تعبر عنها من الخارج. ولاشك فى أن الجماعات الإنسانية عموماً، إضافة إلى المؤسسات الاجتماعية، ليس لديها ما يساعدها فى وضوح على القيام بوظائفها تجاه هذه الموجات التى لا تزال تمتلك شيئاً مشتركاً معها. وفيما يتعلق بمشاركتها فى هذه التحولات داخل "النمط المتخيل" الذى ينظم السلوك الاجتماعى، فإنه يمكننا فهم طبيعة الموجة أو التعبير عنها. (٤١) كما هو الحال فى التعبير عن يقظة رفقاء السلاح بمناطق الفكلاند Falklands، وطريقة حياتهم وأسلوبهم المؤثر إزاء "ما بعد الحداثة". على الرغم من أن أسلوب الحرب، كما هو الحال عند قوات المارينز أو مشاة البحرية، كانت اقتباساً مدروساً عن الحرب العالمية الأولى، كما بدت كأن المشاركين فيها قد أعادوا تمثيل الفيلم السينمائى "الخدعة الكبرى" La Grande Illusion لرنوار Renoir، حيث قاموا بمحاكاة رجال الشرطة البواسل الذين اتسموا بالشهامة والفروسية أمام مقاتليهم فى معركتهم النبيلة للدفاع عن عصر التكنولوجيا الحديثة. (٤٢)

(أ) جيل الوجودية:

كان جيل الوجودية هو أول هذه الأجيال التى أشرنا إليها على أساس أن الوجودية هى تعبير صريح عن أحد التحولات الثقافية فى الفكر المعاصر، بسبب انتقادها النزعات المتصارعة فى العالم المعاصر، وبخاصة كل ما كان يمثل تهديداً لإمكان وجود إنسانية أصيلة. وقد انتشر خطاب سارتر Sartre، وليس فلسفته، فى سرعة خاطفة، حيث فاجأ عقول الشباب فى الغرب الأوربى، كما امتد أيضاً إلى وسط أوربا وجنوبها. وقد أشار فى خطابه إلى عدم وجود تبدلات كبرى، فى معظم الأحوال، فى تصور المثقف الكلاسيكى الذى أحب دوره، وشعر من حيث المبدأ أنه تقنى المعرفة الذى حصل على مرتب جيد، وسعى إلى فضح القمع والكبت فى المهرجانات الخطابية. وقد أدى به هذا الاستياء (أو عدم الرضا عن نفسه) – الذى هو بمثابة وعى لتناقضه – إلى أن يكون نافعاً، ما دام تناقضه هو تناقض المجتمع بأسره. (٤٣)

لم يكن خطاب سارتر ذاته جديداً أو فريداً فى نوعه، حيث انتشرت الرومانتيكية أيضاً على نحو سريع، فى خلال القرن الماضى. فما هو الجديد إذن فى استعادة الماضى والتأمل فيه؟ لقد كانت الوجودية هى الأولى فى سلسلة التحولات الثقافية فى تاريخ الغرب بعد انتشارها فى النصف الثانى من القرن العشرين. ومثل الرومانتيكية Romanticism نشأت الوجودية منذ البداية بوصفها ثورة للذاتية Subjectivity ضد جمود الصور البورجوازية للحياة ومواجهة القيود المعيارية الرسمية لوسائل الحياة (٤٤). وعلى هذا صارت الذاتية الإنسانية هى الأساس الموضوعى لكل ما هو موجود، وأصبح العالم يتكون من خلال عالم الذات، وأخذ الإنسان، سواء فى معرفته أو فى عمله، يتصرف فى الموضوعات ويدركها فى الامتثال. (٤٥) كما امتلكت ثورة الذاتية مضموناً سياسياً، لكنها لم تكن أكثر نقداً من الحركات الرومانتيكية السابقة.

إذا كانت مشكلة الحرية هى أحد الروافد الوجودية، فإن ظهور النزعة الشمولية Totalitarianism على الساحة، فى الوقت نفسه، على نحو مباغت وعنيف، قد افضى إلى تجربة حية عن الإمكان Contingency، ومن ثم كانت ضرباً من ضروب الحداثة بوصفها تجربة عن الحرية الإنسانية أيضاً. ومع ذلك لم تعد حرية الموجود الفردى تعبر تعبيراً كافياً عن فكرة الحرية عموماً. لقد سيّست الحرية، وأصبحت الحرية السياسية هى مركز الاهتمام فى الوقت الراهن. ومن هنا تولد الشعور بالمقاومة ضد الاستعمار فى صورة حركات مضادة له. وخلال هذه التجربة ارتبط تسييس الحرية بإضفاء النسبية على الثقافة الغربية والبورجوازية، فأصبحتا شيئاً واحداً. وهو الأمر الذى يعد ارتداداً من أوربا، بسبب سلسلة الممارسات الثقافية التى قامت بها. كما كانت ثورة الرجال والنساء دليلاً على صدمة البورجوازى. (٤٦) وعلى ذلك فإن الضجة التى صاحبت الموجة الوجودية أضحت غير موجودة. لقد ظلت نداءات الوجودية مجرد نداءات، فلم توجه الإنسان إلى الممارسة المؤثرة، ولم توجهه نحو النضال ضد القوى الرجعية، بل حصرته فى الوعى الفردى الذاتى فحسب، والإدراك السلبى للعالم (٤٧)، كما أن الاتجاه فى مناقضة العلم والعثور على موضوع للفلسفة خارج إطار المعطيات العلمية، قد أفقد الوجودية صداها النظرى المتعلق بالفكر الفلسفى فى هذا العصر. (٤٨) ومن ناحية أخرى سيطر الإمكان على نظرة الشباب من الرجال والنساء بلا حدود، وانغمروا

في الانفعال الوجودى والحب الوجودى والحوار الوجودى .. وهلم جرا. كما أصبح الإصرار على الحرية إصراراً نظرياً قدرياً. (٤٩)

(ب) جيل الاغتراب:

ظهر بعد ذلك جيل الاغتراب Alienation الذى أحدث تحولاً جديداً فى الفكر، وبخاصة فى عام ١٩٦٨م، ولاشك فى أن هذا التحول كان انعكاساً للموجة الوجودية التى رأت أن الاغتراب هو أساس الوجود الإنسانى. (٥٠) كان هذا التحول بمثابة ثورة أحدثها الشباب فى خلال هذه الفترة؛ من أجل خلق مجتمع جديد، وإنسان جديد، وعالم جديد. ولئن كانت هذه الثورة ترفض التمذهب فى مذاهب محددة أو التقولب فى أيديولوجيات معينة، فإننا نتبين فيما وجهته من انتقادات سياسية للرأسمالية والماركسية التقليدية على السواء، نزعة راديكالية جديدة ذات جذور رومانسية غير خافية، تذكرنا بتلك الفكرة عن المجتمع الذى يسوده العقل والحرية. وقد لا نبعد كثيراً عن الحقيقة إن قلنا إن الشباب بثورتهم فى عام ١٩٦٨م قد جسدوا على صعيد الواقع ما سبق أن نادى به الفلاسفة على صعيد الفكر، وأرسوا – ربما للمرة الأولى فى القرن العشرين – دعائم ما أطلق عليه مارشل برمان M. Berman اسم بوليطيقيا الوجود الأصيل غير القائم على الزيف The Politcs of Authenticity (٥١).

وعلى الرغم من الإحباط الذى أصاب جيل الاغتراب فى خلال هذه الموجة، فإنه صار جيلاً إيجابياً فى غمرة التقدم الذى اندمجت فيه الحركات المختلفة فى ذروة هذه الموجات. وأصبح هذا الدمج الموضوعى تحولاً جديداً فى ثقافة العصر. (٥٢) وقد عملت بعض هذه الحركات على ضرورة مد التجربة الإنسانية إلى مجالات أخرى محظورة، حيث جعلت منها نزعة راديكالية أصيلة، فى حين سعت بعض الحركات الأخرى إلى التوسع فى نظام العشائر والأسر. كما نادت حركات أخرى بالعودة إلى بساطة الحياة الريفية، ودعت أخرى إلى التحرر الجنسى المصحوب بالمتعة الاجتماعية. كما حققت بعض الحركات الأخرى أهدافاً سياسية ملموسة، وكان أثرها واضحاً على المسرح التجريبى وأحداث الواقع، والتربية الحرة، ورفع شعار "الجمال فى البساطة". لذلك كان من المتعذر، عملياً، حصر جميع النتائج والممارسات التى حاولت من خلالها الموجة الثانية للحركة الثقافية شغل ما أبديناه من ملاحظات حول الحضارة الغربية ذاتها. (٥٣)

(ج) جيل ما بعد الحداثة:

جاء جيل (ما بعد الحداثة) مع نهاية الستينيات. ويرجع الفضل فى ظهور هذه الموجة إلى جيل الاغتراب الذى تحرر من وهم محاولة إدراك العالم وحده، ويمكننا القول بأن هزيمة عام ١٩٦٨م كانت سبباً للتحرر من هذا الوهم؛ يقول سارتر: لقد منيت أحداث عام ١٩٦٨م بالفشل والهزيمة من منظور معين. ولكنها لم تمن بالفشل إلا بالنسبة لأولئك الذين آمنوا بأن الثورة فى متناول اليد، وبأن العمال سيقتفون أثر الطلبة إلى النهاية، وبأن العمل الذى انطلقت شرارته من نانتير والسوربون سينتهى إلى يوم قيامة اجتماعية واقتصادية، لن ينجم عنها سقوط العهد فحسب، بل انحلال النظام الرأسمالى كذلك. [٥٤]

نشأت "ما بعد الحداثة" فى مستهل عام ١٩٦٨م، وبخاصة فى فرنسا، لذلك يمكن النظر إليها بوصفها امتداداً للموجة السابقة عليها. ولكن أيا ما كان يحدث على المستوى النظرى، فإن هذه الموجات السابقة على "ما بعد الحداثة" أوشكت على الزوال. إن هذه النظريات التى استمرت طويلاً من خلال خطاب جيل الاغتراب، أدت إلى وجود لغة مشتركة للحوار حول الهزيمة النهائية للحركات الاجتماعية. وعلى الرغم من الدلالات الواضحة لزوال هذه الحركات، فقد كانت هناك حركات أخرى مستقلة ظلت مستترة؛ لأنها كانت فى الأساس سيكولوجية أو شخصانية مشتركة Interpersonal، وكانت هذه الحركات فى خطاباتها مشبعة بالعلاقات الإنسانية؛ وهذا ما ساعدها على تشكيل البناء الاجتماعى من جديد. [٥٥]

وعلى مقربة من هذا المستوى الاجتماعى أخذت فى الظهور بعض التحولات الثقافية الهائلة فى فكرنا المعاصر؛ إذ حاول المفكرون تسمية هذا الخليط الثقافى الاجتماعى الذى تبلور فى العقود الأخيرة من القرن العشرين فى الغرب، فأعلن بعضهم عن نهاية الفلسفة الكلاسيكية أو الثقافة التقليدية. فى حين وصف البعض الآخر هذه الموجة بمرحلة (المابعديات)؛ مثل: ما بعد البنيوية، وما بعد النظرية، وما بعد الماركسية، وما بعد الفلسفة، وما بعد الحداثة .. وهلم جرا. [٥٦] ولا شك فى أن الفلسفة التى لا تكترث بمجرى هذه التحولات الثقافية الكبرى، والتى تتجاهل الحركة العلمية وما تحرزه من تقدم، ولا تتفاعل معها، مقضى عليها بالجمود التدريجى، ومن ثم بالزوال. [٥٧]

*** سمات التحول الثقافى لموجة ما بعد الحداثة:**

تعد "ما بعد الحداثة" من أهم التحولات الثقافية الكبرى فى الفكر المعاصر، وهى ليست أيديولوجيا أو نظرية أو منهجاً، ويتلخص خطابها فى أن "كل شىء يمضى أو ينقضى" Anything goes. ولا يعد هذا الشعار دليلاً على الثورة أو العصيان، كما لا يعنى أن "ما بعد الحداثة" هى مجرد حركة من حركات التمرد. [٥٨] وعلى الرغم من ذلك تدعو "ما بعد الحداثة" إلى رفض جميع وسائل الحياة التقليدية. بالإضافة إلى رفضها النظريات الكبرى التى تحاول تقديم تفسير شمولى للظواهر أو تتخذ شكل أنساق كبرى مغلقة. وتدعو إلى إلغاء كل مركزية دفاعاً عن التشتت والفوضى والتشعب، والمصالحة بين المتخيل والواقع، وإعادة إدماج الوهم فى الصيرورة، وإحلال الاختلاف محل الهوية. [٥٩]

لقد أصبحت الحياة اليومية ووسائل ممارستها التى اتسمت بالوفرة والتنوع، هى الشغل الشاغل لإنسان "ما بعد الحداثة"، وهو اهتمام لا يحتاج إلى ثورة أو تمرد من رجال العالم المعاصر ونسائه، ومن ثم لم يكن هناك دافع محدد للتمرد الاجتماعى. فكل شىء يمضى أو ينقضى ولا يوجد فى ذلك ما يدعو إلى الدهشة والقلق. [٦٠] ويمكن إيجاز سمات التحول الثقافى لهذه الموجة فيما يلى:-

أ- التعددية:

اتسمت هذه الموجة بالتعددية Pluralism ووفرة الوسائل التى لعبت دوراً مهماً فى تغيير أنماط الحياة على نحو ملحوظ؛ فهل هناك ما يدعوها إلى الثورة أو إلى التمرد؟ الواقع أن موجة "ما بعد الحداثة" لم تسع إلى المحافظة على القديم، ولم تكن من الحركات الثورية أو التقدمية. ولم تكن موجة لمناهضة الأمل والرجاء، أو مناسبة للإحباط واليأس. بل إنها تحول ثقافى فى العلاقة بين الإنسان والأحداث الجارية فى العالم المعاصر، وقد لا يكون من الإفراط فى التبسيط القول بأنه تحول من اليقين إلى النسبية.[٦١]بالإضافة إلى أن هذه الموجة لم تكن سياسية أو ضد السياسة.

ب- النسبية الثقافية:

اتسمت هذه الموجة كذلك بالنسبية الثقافية التى ثارت على الجمود الذى أصاب الثقافات الكلاسيكية، واليقين الذى عاشت فيه سنين طويلة. فقد كان الناس – منذ مائة عام خلت – على يقين من كل شيء، فتصوراتهم عن الله والتقدم والحقيقة والجمال والبواعث الإنسانية والأخلاقيات والجنس والزواج والحضارة والحرب والاقتصاد والطبيعة، كانت جميعاً واضحة، يمكن صياغتها فى عبارات محددة وغالباً مطلقة، أما فى خلال هذا التحول لم يعد هذا اليقين ممكناً. (٦٢) كما ثارت النسبية الثقافية على كل تقدير لعرقية ما هو موروث وشرعى، وبالأحرى على التراث الغربى الذى تركته وراءها، وقد نجحت فى ذلك تماماً، وأصبحت قادرة الآن على تحصين نفسها. (٦٣) إن إدراك كل شيء يتغير ويتحول، لا يكون ممكناً إلا فى مجتمع يغير كل شيء، وما إن يتوصل الإنسان إلى هذا الإدراك حتى يصبح أمراً واقعاً على كل المجتمعات. ويتيح هذا التحول قدراً من الحرية لاكتشاف قدرة البشر على أن يصنعوا أنفسهم، ويعيدوا صناعتها بلا انقطاع. ولا يعنى هذا التحول الشامل فى نظرهم أن يعلن الإنسان عن يأسه، بل يعنى إتاحة الفرصة لفهم متجدد والتخطيط لاتجاهات جديدة. (٦٤) ولقد تولى الجيل الجديد أو جيل الشباب الدفاع عن هذه الموجة، بعد أن صنع نفسه وصاغ قراراته.

تمثلت ثقافة ما بعد الحداثة فى بعض الحركات الفنية والسياسية، والواقعية الفوتوغرافية والتعبيرية الجديدة وأعمال المعمار التى شكلت الجسر الذى عبرت عليه موجة ما بعد الحداثة بوصفها ثقافة حياة، صارت بصماتها واضحة على عالمى السينما والتليفزيون، ونظم الإدارة وبرامج الكمبيوتر، وشبكة الإنترنت، والشركات متعددة الجنسيات. (٦٥) كما تضمنت حركات أخرى اهتمت بالصحة العامة والطعام الصحى وممارسة رياضة العدو، وانتشار الإعلانات التى تحذرنا من أضرار التدخين، وحركات أخرى تدعو إلى السلام ورفض التسلح النووى، كما بلغت حركات المحافظة على البيئة ذروتها فى خلال هذه الموجة. (٦٦)

ج- ازدهار الحركة النسائية:

شهد هذا التحول الثقافى أيضاً ازدهاراً للحركة النسائية Feminism بوصفها حملة على مستويات عدة يقودها جمهور النساء الذى أُستبعِد من مجالات حيوية من

الحياة العامة والاجتماعية، واستبعِد أيضاً من وزر تحمل المسئولية الاجتماعية. (٦٧) وعلى ذلك، فلكى تخلق المرأة من جديد، يجب على المجتمع أن يسلم بأنها مساوية للرجل أولاً، وأنها مخلوق طبيعى، ونتاج للحضارة. (٦٨) لذلك تعالت صيحات المفكرين، والمثقفين عموماً، إلى ضرورة إصلاح المناهج التربوية وتحديثها.

د- تفشى الموضة:

أصبحت الحياة الاجتماعية أكثر خضوعاً، بموازاة التحديث الاقتصادى، لقانون الموضة Fashion، ولعل المجلات المختلفة الصادرة عن الموضة من أهم الدلائل على السمة التعددية لموجة "ما بعد الحداثة". إن الموضة فى ذاتها لم تعد موجودة، فى الوقت الذى أصبح فيه كل شيء قائماً على الموضة. فلم نعد نمتلك مذاقاً جميلاً أو حتى مذاقاً رديئاً فى ذاته، بل أصبح فى وسعنا التمييز بين الجميل والرديء داخل النوع نفسه. (٦٩) لقد تحولت الموضة من موضة كلاسيكية مرتبطة بالنظام الرأسمالى الكلاسيكى إلى موضة جديدة، وهى موضة خليط أو مزيج من الأذواق والموائد والأطعمة العالمية، والملابس التى تندمج فيها الحياكة الراقية بالفولكلور، وخليط من الموجات الغنائية مثل الروك والجاز والبوب .. مما أضفى على الثقافة الجماهيرية الجديدة قدراً كبيراً من المرونة فى استثمار الرموز والمعطيات، وإزالة الجمود بين أنماط الموضة. (٧٠)

التحول الثقافى فى الوقت الحاضر: تجاوز أم تطور؟

إذا كان التحول الثقافى لموجة "ما بعد الحداثة" مازال مستمراً حتى وقتنا هذا، فإن هذا التحول قد بدأ مع جيل الوجودية بعد الحرب العالمية الثانية. ولا يعد ذلك مؤشراً على نهاية الحركات الأخرى، أو الحركات المضادة لها. بل إن هذه المواقف التى أشرنا إليها كانت مواكبة لتحولات ثقافية ملموسة، وكل ما فى وسعنا هو تعزيز هذه التحولات من موجة إلى أخرى؛ على الرغم من أن هذه التحولات نفسها لا يمكن تجسيدها إلا من خلال موجات متلاحقة من جيل إلى جيل. أخيراً لا تخص هذه الموجات جيل الشباب وحده، كما أنها ليست خليطاً أو مزيجاً، بل هى موجات متلاحقة من جيل إلى آخر. (٧١)

فى خلال هذا العرض الموجز للدور الذى قامت به الأجيال الثلاثة فى التحولات الثقافية العالمية التى يمكن تصورها فى الفكر المعاصر، يتبين لنا المدى الذى بلغته كل موجة – بصيغة العولمة – فى التعبير عن العالم الثقافى فى أنحاء المعمورة، ومن ثم القضاء على كل نمطية تقليدية للثقافات. وإضافة إلى ذلك تميزت كل موجة بدافع جديد من أجل التحول البنيوى فى العلاقات بين الأجيال. (٧٢)

وعندما بلغت هذه الموجات الثقافية الثلاث أهدافها بشكل كبير، كانت قادرة على ترقب ما يمكن أن يحدث فى المستقبل القريب، بالإضافة إلى الحاضر نفسه. ومن ثم فإن التحول Transformation الذى أصبح متفاوتاً فى العصر الحاضر، يحمل فى طياته مستقبلاً جديداً لعصر آخر. ولا يوجد عامل واحد مشترك من حيث القيمة أو الأهمية بالنسبة للاختلافات الطارئة التى يتسم بها هذا التحول. (٧٣) وفيما يتعلق بالتحولات الثقافية الكلاسيكية عن الأصل أو المنشأ المختلف Different Provenance فإنه يمكن التعجيل بإحراز التقدم أو إعاقته، بعد أن أصبحت صور الحياة البورجوازية التقليدية فى ألمانيا أكثر تأصيلاً عن اسكانديناڤيا Scandinavia بالإضافة إلى أن هذه التحولات بعيدة كل البعد عن القيام بوضع تحديد لكمال الشىء وتمامه. (٧٤)

وعلى الرغم من ذلك لاتزال الثقافات الكلاسيكية موجودة إلى حد كبير، ولا يزال الإحساس بالتفوق الأوربى موجوداً، ولا يزال الخلاف بين الأجيال قائماً.

لذلك يعد الفصل النهائى وسيلة وليس هدفاً، ويعد الهدف مجرد إمكان Possibility يمكن النظر إليه بوصفه أقل واقعية. وهنا يمكن استنتاج سلسلة من الظواهر الاقتصادية الاجتماعية Socioeconomic التى تم اكتشافها وفحصها عن طريق المعطيات التجريبية عند بعض علماء الاجتماع المعاصرين من أمثال تورين Touraine وأوف Offe وداهرندورف Dahrendorf (٧٥)

على صعيد آخر تدعو النخب العصرية المستوعبة للتحول الثقافى التكنولوجى إلى عقلنة الثقافة الكلاسيكية وغربلتها وتلقيحها بمكتسبات التحول الجديد، حتى تتحول هى الأخرى إلى ثقافة ملائمة للعصر. فى حين يرى جيل الشباب من المعاصرين أن الإعراض عن القيم الموروثة، ورفض أية أشكال مقدسة، يقود الإنسان إلى الحرية الشخصية الكاملة، وإلى عقل واع مستقل، وإحساس خاص بالاستقرار. (٧٦)

وفى الوقت الذى أوشكت فيه الثقافات الكلاسيكية على التحول لنفاد مفاهيمها التى أدرك تاريخها الجمود والتكرار، فإن التحول الثقافى الجديد يصف واقعاً مادياً معيشا على الصعيد العالمى، بما له من مفاهيم أخرى جديدة؛ مثل مجتمع الاستهلاك، ومجتمع الوفرة، بالإضافة إلى مفاهيم أخرى تقنية واقتصادية؛ مثل النظام السيبيرنيطيقى الرأسمالى الجديد، والمجتمع الإعلامى والمعلوماتى أو مجتمع المشهد نتيجة تقنيات الإعلام والتواصل واكتساب المعلومات، والمجتمع التكنوقراطى عند ألان تورين، ومجتمع ما بعد الصناعى Post - industrial Society عند دانيال بيل وداهرندورف الذى أشار إلى وقت الفراغ بوصفه أساس الحياة العصيبة، مؤكداً أن عدد الجماهير التى تمارس نشاطاً اجتماعياً فى دول السوق الأوربية المشتركة لا يتعدى ٢٥٪ من عدد سكان هذه الدول؛ هم من أصحاب الوظائف ورجال الأعمال. ولم يعد شغل الوظيفة مرهوناً بالكفاءة التى تمنح الشرعية لقيام الحياة. وعند ممارسة الحياة العامة يمكن النظر إلى إنجاز الوظيفة بوصفه إمكانا ملائماً Contingent، لذلك يصعب عدّه مركزاً للهوية الثقافية Cultural Identification، أو بالأحرى هو نتيجة مقدار العملة المستهلكة الذى يعد مصدراً للهوية الثقافية.ومن ثم تنشأ هذه الهوية على الكم لا الكيف. (٧٧) ولا شك فى أن جيل الاغتراب كان على وعى تام بأن نمط الاستهلاك الراقى يعد نمطاً اجتماعياً عاماً تحت تأثير لعبة "الأذواق" والميول والرغبات، عن طريق الطبقة الوسطى من الجماهير. ومن هنا كان سعى كل فرد للحصول على المتعة وتحقيق قدر من اللذة لسد حاجته، وهو ما كان يعزوه الفرد إلى الأشياء والمنتجات وأشكال الفن والممارسات العملية .. وهلم جرا. (٧٨)

وقد يتوقف تطور عملية الاستهلاك Consumerism على نحو مفاجئ بحلول الأزمات الاقتصادية وحالات الكساد، وقد تتمتع الجماهير فى مجتمع الرفاهية بوفرة أقل من جيل الاغتراب، لذلك فإن الافتراض المسبق للأنماط التى يقوم عليها تفسير النموذج الإرشادى Paradigm لم يعد له قيمة على الرغم من عدم زواله. ومن هنا لم تعد نتيجة هذه المعالجة العامة أمراً مؤكداً كالخطة العابسة التى وضعت عن طريق التنبؤات الأولى. وكما هو الحال فى أحوال كثيرة، قد يتحول التنبؤ ذاته Predication عما كان يتنبأ به، وقد يبدو مبالغاً فيما يذهب إليه. وبذلك تعد موجة "ما بعد الحداثة" امتداداً لموجة جيل الاغتراب. ويعد ارتباط الفرد بالآخر، وفهمه

لذاته من خلال الآخر، فى المجتمع الجماهيرى، فاصلاً قصيراً فى حياة أوربا وأمريكا الشمالية (٧٩). وعلى هذا لم يعد التوحيد القياسى أو توحيد الاستهلاك أمراً مؤكداً، بل بالأحرى التعدد الهائل للأذواق والميول والممارسات العملية والمتع والحاجات. وعلى الرغم من إنفاق كمية النقد المتاحة، والانتفاع بها أو تبديدها، فإنها تظل مقياساً مستمراً عند توزيع وظائف الرجال والنساء، فى الوقت الذى تضع فيه نمطاً للمتعة واللذة والممارسة العملية لما يقومون به. وفى مقابل ذلك تقوم الطبقات الوسطى، من ناحية أخرى، بوضع قائمة للأذواق الفردية فى شكل رفيع المستوى. وبذلك تصير الأنماط المختلفة للاستهلاك جزءاً لا يتجزأ من التنوع الخاص بأساليب الحياة اليومية (إن كل رجل أو كل امرأة، بحسب اختياره أو اختيارها، يستخدم أو تستخدم الوسيلة المناسبة لإشباع رغباته أو رغباتها وفق هذا الاختيار). (٨٠) من هنا جاء التحول إلى طرح قيم أخلاقية منفتحة قوامها التعدد والنسبية ومكانة الأفراد المستمدة من الإنجاز والاكتساب أكثر منها بالوراثة والانتماء، بالإضافة إلى طرح قيم مؤسسة على العمل والتقدم والتغير والتحرر وتمجيد المستقبل والتطلع إليه باستمرار. (٨١)

هنا يتعين علينا التحول نحو نسبية ثقافية، حيث أصبحت الثقافات المغايرة Alien Cultures، فى الوقت الراهن، موجودة لدينا فى معظم أوقات الحياة اليومية. إننا نعيش اليوم فى عالم متغير دوماً، وتغيره هو يقيننا الوحيد. ولا يمكننا فهم أنفسنا أو وضعنا الحالى بدون أن نفهم هذه التغيرات والنسبية فى الأشياء. (٨٢) هكذا يكون التنوع والاختلاف جزءاً لا يتجزأ من الممارسة الثقافية فى عالمنا المعاصر بفضل فهمنا واستيعابنا الجيد له. وهو ما أصبح مألوفاً فيما بعد، بداية من المطعم الصينى إلى الملابس الهندية، ومن "التسريحة" الأفريقية إلى التقاليع الغريبة فى أمريكا اللاتينية. ومما يدعو إلى الدهشة أن الغريب المتأصل فيها جاء مواكباً للمطبخ الصينى و"التسريحة" الأفريقية وشاى الأعشاب والأفلام الجنسية عند جيل الاغتراب. وعلى الرغم من ذلك، تحولت هذه الثقافة إلى ممارسة عند الجيل الجديد، الذى عرضها على أنها أشياء غير تقليدية فى قوائم الطعام اليومية، وقد استطاع كل ذوق، من خلالها، أن يحدد احتياجاته الخاصة وإشباع رغباته. (٨٣) ولا يوجد فى تنوع هذه القوائم ما يجاوز طريقة حياتنا اليومية. وبعبارة أخرى: تشكل بعض الممارسات والأذواق والأولويات أنماطاً معينة، ويستطيع المرء أن يفاضل بينها، حيث ينقضى بعد ذلك هذا وذاك. (٨٤)

لعل المشكلة التى تفرض نفسها الآن، إزاء هذا التنوع اللامحدود، هو مدى توحيد طرق الحياة المختلفة والتوقف عن لعبة الرغبات، أو المفاضلة بين رغبة وأخرى. لذلك تؤكد هاناه أرندت Hannah Arendt وأخرون ضرورة وجود الطبقات الاجتماعية لإدارة السياسات على ما هو عقلانى Rational، والذى يقوم بدوره فى الإطار الاجتماعى والمؤسسى الذى ينطوى العمل السياسى فى داخله. وبذلك فان فى وسع هذه الطبقات أن تكون مصدراً للنظم السياسية التى تمثل مصالحها، على الرغم من أن الأفعال التى تعد عقلانية من منظور نمط حياة ما، قد تصبح قمة اللاعقلانية من منظور نمط حياة منافس.(٨٥)

ولكن عندما تنحصر الطبقات وتأخذ فى التناقص، وتضاف الثقافات بعضها إلى بعض إلى درجة الخصوصية الكاملة، هل يكون لذلك معنى، وهل يظل التأسيس العقلانى عملية ممكنة؟ قد نكون يساريين فحسب عندما نقوم بتأسيس الشركات أو النقابات بحسب وظائفها، وهنا لا تمثل الشركات أو النقابات مصالح خاصة أو اهتمامات فردية بوسائل الحياة عموماً. وبالأحرى تصبح المصالح وظائف خاصة متميزة. وعلى ذلك فإن المجتمعات التى تقوم على الإجماع والتواصل يمكن وصفها بلا منازع بالمجتمعات الجماهيرية التى ترفض التعددية الثقافية. ومن ثم تصبح السياسات جزءاً لا يتجزأ من وعى الجماهير وسبل الحياة اليومية على مستوى الطبقات الاجتماعية. ويعد هذا التصور غير مؤكد فى نظر النسبية الثقافية أو التعددية التى تقود كل منهما إلى زوال الحكمة العقلية المأخوذ بها، والتى تعد استهلالاً واسعاً للشكل الديمقراطى، وأكثر الأشكال العقلانية فى العمل السياسى، ومجموعة الأنظمة البرلمانية على غرار النمط المباشر للديمقراطية.(٨٦)

إذا نظرنا إلى التحول القائم فى العلاقات بين الأجيال، لوجدنا انتقال الموجات الثلاث إلى جيل الشباب الذى عمل على تعزيزها. ومع ذلك فإن مفهوم كلمة "شاب" Young فى حاجة إلى تفسير. إن الشباب فى المجتمع الوظيفى Functional Society هم الرجال والنساء الذين ينتمون إلى طبقة أو أخرى عند تقسيم العمل الاجتماعى. وعادة ما يكون هؤلاء الشباب فى سن الثلاثين، أى فى عمر متوسط بالنسبة لجيل السلف. وعلى ذلك يرفض هذا المفهوم الوظيفى التمييز بين أجيال حديثة وأجيال قديمة. "على كل، ليس لدى كبار السن فى الوقت الحالى وظيفة يقومون بها، لذلك فهم ينتمون إلى مرحلة ما بعد الوظيفة Postfunctional" (٨٧)

ومن هنا تتضح لنا التحولات القائمة فى العلاقة بين أجيال "ما بعد الوظيفة" وأجيال "الوظيفة"، وهو ما نستطيع أن ندركه بشكل عام فى المظهر الخارجى للمجتمع. لقد حاول الرجال من الشباب فى الثقافات الكلاسيكية أن يعبروا بدقة عن زمان أقدم من زمانهم إلى حد بعيد. وقد تحول هذا النمط مع نهاية الحرب العالمية الثانية، إلى الاتجاه المخالف تماماً. لقد أصبح هؤلاء مهيئين ذهنياً وبدنياً لبذل بعض المحاولات الجادة، حتى يمكن النظر إليهم بوصفهم شبابا والنظر إلى مسلكهم وفقاً لذلك. لقد تضمنت هذه النظرات بعض المدلولات الاجتماعية المختلفة. فى حين عبرت النظرة الأقدم فى عمر الفرد عن الطموح الذى وصف به الراشدون، الذين أصبحوا مؤهلين لحسم الأمور وتحمل مسئولية أفعالهم. (٨٨) فى حين عبرت النظرة الشبابية من عمر الفرد عن الطموح الذى اتسم بحرية الاختيار، والبعد عن البيروقراطية، بالإضافة إلى عدم الجمود الناجم عن الوظيفة.

وتعنى الخبرة العامة، فى ذروة هذه الموجات الخاصة بالأجيال، أن عدداً من جيل الوظيفة يمكنه التعبير عن خلفه بالنظر إليه بوصفه شبابا شرفيا أو شاغلاً الوظيفة على سبيل التشريف Honorary Youth. (٨٩) إن الخبرات الناجمة عن أزمة منتصف العمر هى خبرات ملفقة داخل هذا العالم الخاص بالتقسيم الوظيفى للعمل، وبعبارة أخرى هى نتاج المجتمع الوظيفى.

وعلى ذلك، تعد الثقافة البورجوازية العاملة، والطبقة الأرستقراطية العليا، بالإضافة إلى الشخص البالغ منتصف مرحلة الشيخوخة، داخل الثقافة الكلاسيكية، أوضاعاً ملائمة لشغل بعض المناصب التى تصير نموذجاً أو نمطاً للراشدين الذين يتسمون بالقدرة على حسم القضايا. والراشد هو الشخص الذى لايزال يجسد قدرته فى النزوع نحو العقل، فى حين يعنى الآن مخزون كمية الخبرة التى تساعده على أن يكون فرداً داخل ثقافة معطاة أو ممنوحة له Given Culture. وقد يكون الأشخاص، فى منتصف أزمة الشيخوخة، أنواعاً فجة، غير مؤهلين للعمل من جديد، ولا يتعدون فى ذلك طور المراهقة المصحوب بالشعر الأبيض، وبخاصة عندما يتطلعون إلى هوية جديدة New Identity (٩٠)

إن التقسيم الوظيفى للعمل عملية تركيبية معقدة مصحوبة بالتضارب أحياناً. ويقتضى القيام بالوظيفة بوصف ذلك نوعاً من التماثل فى مجال التجارة والمؤسسات العامة. وقد يصاحب هذا التماثل نوع من التحول عند ممارسة الوظيفة

واتساع الإغراء أمام شاغلها، وهو مما يجعله بيروقراطياً صلداً. وتعد الوظيفة التى يمكن إنجازها أو القيام بها وسيلة من الصعب غلق الباب أمام مجموعة الشباب المتنافسين عليها.

وليس الرضا عن هذه الوظيفة سوى ستار نفسى متعال يخشى الدخول فى منافسة ما. ونتيجة لذلك لا يختلف هذا النوع من الآباء اختلافاً جوهرياً مع أبناء جيل آخر. ومن هنا تكون النظرة إلى الشباب ذات وظيفة مزدوجة: فهى من ناحية تساعد على قبول الراشدين داخل الوسط الشبابى، ومن ناحية أخرى تمدهم بالقدرة على منافسة أبناء أجيال أخرى. وقد يزول هذا الخلاف، على نحو طبيعى، عندما يتخلى الكبار عن المنافسة بارتداء ثوب الشباب. (٩١)

لم يعد العالم إذن بعد الحرب العالمية الثانية عالماً أوديبياً Oedipal، وذلك بعد أن تحملت الأم مع الأب المسئولية المادية والأخلاقية للأسرة، وشعور الفتاة أنها فى عالم مزدوج الجنسية، وليست فى عالم من الرجال فحسب، حتى ولو كانت منجذبة عاطفياً إلى أبيها، فإن حبها سوف يصطبغ برغبتها فى أن تنافسه وليس بإحساسها بالعجز تجاهه. (٩٢)

وآخر ما يمكن أن نلاحظه حول التحول الثقافى للموجات الثلاث فى الفكر المعاصر؛ هو استقرار مقوماتها سواء فى حالة ازدهارها أو نكوصها، تواصلها أو عدم تواصلها، حيث تشكل الحركات النسائية ركناً أساسياً فى هذه الموجات، وهو الأمر الذى يكشفه التحول الثقافى عموماً فى الوقت الراهن. كانت الحركة النسائية Feminism ولاتزال ثورة اجتماعية كبرى للحداثة إلى حد كبير، قامت رسالتها على الدعوة إلى المساواة الاجتماعية والحرية، وإقامة علاقة عميقة بين النساء وأنفسهن من ناحية، وبينهن وبين الرجال من ناحية أخرى. وعلى عكس الثورة السياسية لم تندلع الثورة الاجتماعية، بل سعت إلى إبراز مكانتها، ولاتزال الثورة الاجتماعية حتى الآن ثورة ثقافية. وقد سبق أن أشرنا إلى نسبية الثقافات والغزوات التى جاءت عن طريق الثقافات المغايرة إلى الثقافات الغربية. ولم تكن الثورة النسائية عموماً هى الإسهام الوحيد فى التحول الثقافى فى الغرب، بل كانت الرائدة وصاحبة السبق المتميز. ومع ذلك، لا تزال الثقافة النسوية Female مهمشة حتى الآن فى بعض الدول. ولعل الدافع إلى قيامها يرجع إلى الطرق أو الوسائل المستخدمة فيها التى تعبر عنها وعن

مصالحها الخاصة، والمطالبة بحقها فى نصف الثقافة الكلاسيكية خلال تاريخ الإنسانية. وعلى ذلك ليست الثورة النسائية بدعاً بين ظواهر الثقافة الغربية، بل هى الحد الفاصل فى جميع الثقافات الموجودة فى الوقت الحاضر [٩٣]

لم تكن الثورة النسائية فى صورتها الجديدة ناجمة عن تقسيم العمل وحده. ولكى تصبح الأنماط الديمقراطية، بالإضافة إلى قيم الحرية والمساواة فى الحقوق والواجبات حاضرة فى النمط التخيلى لمعناها، كان من الضرورى أن تمتلك نوعاً من الموجات إزاء هذه الثورة بهدف إحداثها. [٩٤] كان لدى النساء، مثلهن فى ذلك مثل الرجال، القدرة على الاندماج فى التقسيم الوظيفى للعمل، وكان فى وسعهن أن يبقين أيضاً خاضعات لسيطرة الرجال، لكن بعيداً عن التقسيم الوظيفى للعمل، كان الهدف الموضوعى للثورة النسائية هو أن تظل بعيدة عن إحراز أية نتائج بسيطة لها؛ حيث لم تكن رغبة النساء هو تحقيق الفرصة المواتية لتوفير حياة خاصة بهن، أو إحراز شرط مسبق، كحد أدنى، لحياة مستقلة. [٩٥]

إن الثقافة الكلاسيكية للمرأة التقليدية قد أدرك تاريخها الجمود والخضوع، وراح عنها المساواة بالرجل، وفاتها الحصول على الحرية الشخصية الكاملة والإحساس بالاستقرار. أما الآن فقد أدى التحول فى الثقافة والأخلاق ومعظم المفاهيم الاجتماعية إلى مساواة المرأة العصرية بالرجل فى جميع المجالات، وبخاصة بعد أن أصبحت مزودة بمقومات حديثة: تقنية وثقافية، ومسلحة بآليات عقلية جديدة، ومشاركة الرجل عملياً فى التحول الديمقراطى والتغير الهائل فى المناخين الفكرى والسياسى، ومن ثم ملاءمة قيمها ومعتقداتها الجديدة وأنماط سلوكها للتحولات العالمية فى عالمنا المعاصر. [٩٦]

إن السمة البارزة للتحول الثقافى فى الوقت الحاضر هى التطور السريع والمدهش، سواء من ناحية تنوعها أو مضامينها، أو من ناحية وسائل تخزين معارفها ومعالجتها، وهذا مما نتج عنه تعاظم فى إمكانات المرأة من حيث القدرة والكفاءة والفعالية، وهو الأمر الذى اضطرها إلى تجاوز كل فكر أو ثقافة كلاسيكية.

لماذا إذن ساد الاعتقاد بأن مثل هذه الحركات قد اختفت فى السنوات الأربعين الماضية؟

ربما كان ذلك راجعا إلى تسييس التاريخ على الرغم من أن التاريخ فى المقام الأول هو تاريخ اجتماعى وثقافى، أو بعبارة أخرى هو تاريخ الحياة اليومية للرجل والمرأة معاً. (٩٧)

إن التاريخ بوصفه ممارسة تاريخية، وكذلك التاريخ بوصفه علماً ومعرفة، يتحولان إلى ثقافة تاريخية. ثم تتحرر هذه الثقافة من أصولها وتغادر أرض نشأتها، وتصير مجرد ثقافة. (٩٨) وسوف تكشف هذه الثقافة عن التحولات المواكبة للثورة الاجتماعية.

لقد أصبح العالم، لأول مرة فى تاريخ الإنسانية، بفضل التحول الثقافى الذى عرفته تكنولوجيا الإعلام والاتصال الجديدة، مجموعاً منظماً ومتواصلاً فيما بينه، حيث غدا كل عنصر فيه، وفى أية منطقة من مناطقه، قادراً على إحداث نتائج غير متوقعة، بعيداً عن مكان ظهوره. وكان هذا التحول كامناً منذ البداية فى الموجات الثلاث التى أشرنا إليها. وقصارى القول إنها لم تغير من اتجاه السفينة، بل قامت بتغيير المحيط الذى أبحرت فيه. (٩٩)

خاتمة البحث

يتبين لنا من تحليل إشكالية البحث "التحولات الثقافية فى الفكر المعاصر" التنازعات الثقافية الكبرى فى العالم المعاصر بعد الحرب العالمية الثانية من جيل الوجودية إلى جيل الاغتراب وما بعد الحداثة.

كانت بداية البحث من منتصف القرن التاسع عشر الذى سيطرت فيه ثقافة السادة على ثقافة العامة، على أساس أن ثقافة السيد هى المحك أو المعيار الوحيد بوصفها الثقافة العليا. ومع نهاية هذا القرن ظهر التقسيم الحديث للعمل عن طريق تقسيم المجتمع إلى طبقات اجتماعية تواكب حدودها الوظيفية بهدف القضاء على التمييز العنصرى الصارم لثقافة النظام الطبقى التى راحت عنها مسيرة التجديد والابتكار. كان المفكرون وبخاصة الفنانين منهم، هم أول الجماعات المنشقة على هذا النظام الذى سيطرت عليه النخب التقليدية التى دعت إلى شحذ المخزون الثقافى الذاتى وإحياء التراث وتمجيده.

عمل المفكرون المنشقون على هذا النظام إلى ابتكار "بوهيميا" جديدة لحياة ثقافية واجتماعية مختلفة تقوم على معايشة الحاضر واستلاب الماضى ورفض منظومة "السيد" الثقافية، والقضاء على الانغلاق المحكم للثقافات اعتماداً على المحك "العولمى" من خلال فاعلية الأحداث الجارية والظروف الراهنة.

أصبح القضاء نهائياً على منظومة ثقافة النظام الطبقى فى عام ١٩٣٩م بعد الحرب العالمية الثانية، وظهر واضحاً ما يسمى بالنسبية الثقافية، حيث أصبح كل شيء فى تحول وتغير مستمر، ولم تعد الحياة ممكنة إلا فى ظل النسبية والسخرية من كل شيء أيضاً.

وقد نتج عن مناقشة أوضاع المعانى باستخدام التصور أو التخيل ثلاث موجات متميزة تمكننا من اكتشاف معانٍ جديدة متخيلة عن وسائل تكوين الحياة الثقافية بعد الحرب العالمية الثانية بعيداً عن التاريخ الذى أصبح هو الآخر مجرد ظاهرة ثقافية؛ حيث ظهر "جيل الشباب" من الرجال والنساء الذى استمد روح المبادرة من الجيل السابق عليه منذ قيام الثورة الفرنسية التى عملت على إلغاء النظام الطبقى، وأقامت محله النظام الاقتصادى والسياسى للطبقة الوسطى، وأصبحت كلمة "شاب" مرادفة لمفهوم "ما قبل الوظيفة". وقد سعت الحركات الثقافية

- الشـــبابية إلــــى جــذب انتباه جيل الشباب وضمهم إليها من الأوساط الاجتماعية المخـــتلفة، فأصـــبح الاتجـــاه الثقافـــى للشاب أو الفتى الناضج ضرباً من الحماس الخصب، وثيق الصلة بالموضوع ذاته.

وقد أدى التحول من الثقافات الكلاسيكية - التقليدية إلى الثقافة الحديثة، إلى ميلاد جيل جديد أكثر عنفاً فى وصفه بالخلاف من رجال ونساء صارت المعرفة لديهم متجددة فى كل وقت. وعلى ذلك يمكن تقسيم هذه الأجيال الجديدة التى تعاقبت بعد الحرب العالمية الثانية إلى ثلاثة أجيال: ١- جيل الوجودية ٢- جيل الاغتراب ٣- جيل ما بعد الحداثة، فى الوقت الذى تعاقبت فيه الحركات الثقافية الجديدة التى صاحبتهم فى صورة موجات جاءت مصادفة.

بدأت الموجة الوجودية مسيرتها بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، وبلغت ذروتها مع بداية الخمسينيات، حيث عبرت فى وضوح عن الأزمة العامة لمبادئ مرحلة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية وقيمها، كما وضعت الثقافة البورجوازية بكل مبادئها وحقائقها موضع التساؤل، ورأت أن مشكلة الإنسان هى المشكلة الأساسية.

بدأت الموجة الثانية فى خلال الأحداث التى جرت فى منتصف الستينيات، وبلغت ذروتها فى عام ١٩٦٨م، واستمرت حتى منتصف السبعينيات، وهى ما تعرف بموجة الاغتراب. وقد تميز جيل الاغتراب بانفصال الشخصية عن المجتمع، وانعزال الأنا عن الآخر، بل فى اغتراب الوعى الإنسانى عن وعيه هو ذاته. لذلك كان التشاؤم العميق من سمات هذا الجيل: إحساسه بنقصه وبضعفه، إحساسه بالمأساة وانعدام الأمل.

وانتشرت الموجه الثالثة، وهى ما تعرف بموجة "ما بعد الحداثة" فى خلال عقد الثمانينيات ولم تبلغ ذروتها حتى الآن. وتعد هذه الموجة على قمة التحولات الثقافية العالمية الخاطفة فى السنوات الأخيرة من القرن الماضى، وما حققه كل من العلم والتكنولوجيا من تقدم ملحوظ فى تلك المرحلة، وسقوط الثقافات التقليدية، وإعادة النظر فى معظم القيم السياسية والأخلاقية والإبستمولوجية التى كانت سائدة.

وسعت كل موجة إلى إثارة دوافع جديدة للعلاقات المتبادلة بين الأجيال. وقد حاول المفكرون تسمية هذا الخليط الثقافى الاجتماعى الذى تبلور فى العقود الأخيرة من القرن العشرين فى الغرب، فأعلن بعضهم عن نهاية الفلسفة الكلاسيكية – التقليدية، فى حين وصف بعضهم الموجة الثالثة بمرحلة "المابعديات" مثل "ما بعد البنيوية"، "وما بعد النظرية"، "وما بعد الماركسية"، "وما بعد الفلسفة"، "وما بعد الحداثة" وهلم جرا ... ولا شك فى أن الفلسفة التى لا تكترث بمجرى هذه التحولات الثقافية الكبرى، وتتجاهل الحركة العلمية وما تحرزه من تقدم ولا تتفاعل معها، مقضى عليها بالجمود التدريجى ومن ثم بالزوال.

ويتبين لنا من هذا التحليل أن التنازعات الثقافية فى الغرب بعد الحرب العالمية الثانية كانت هى السمة الغالبة على التحولات الفكرية الكبرى فى العالم المعاصر؛ حيث أدى وجود التصورات النقدية إلى ذوبان المركزيات فى خلال هذه التحولات. ولاشك فى أن هذه التحولات فى ثقافة الفكر الغربى المعاصر قد لعبت دوراً حاسماً فى تغيير المعايير التفاضلية بين الأجيال الثلاثة المشار إليها، كما قضت على المنظومة الثقافية فى القرن التاسع عشر بوصفها منظومة للتصورات العقلية الجامدة، وما اتسمت به من مركزية؛ وهو الأمر الذى نجم عنه ظهور هويات ثقافية جديدة غير تقليدية تتميز بالتغير والنسبية والتعدد.

وقد استخدمنا فى هذا البحث منهجاً تكاملياً ذا منحى تاريخى تحليلى نقدى؛ بهدف اكتشاف علاقات جديدة بين التحولات الثقافية من جيل الوجودية إلى جيل الاغتراب وما بعد الحداثة، وموقف كل جيل من الفلسفات الكلاسيكية – التقليدية السابقة عليه. واعتمادا على المنهج التحليلى يتبين لنا وعى جيل ما بعد الحداثة بالعالم المعيش والتعددية، والسمة النسبية للثقافة الجديدة، وازدهار الحركة النسائية...

وقد استطعنا من خلال المنهج التاريخى أن نتتبع بعض المشكلات التى كانت سائدة فى الفكر الغربى المعاصر منذ الحرب العالمية الثانية وربط هذه الحقبة بحاضر هذا العصر، وما نتج عن ذلك من قبول أو رفض، والتنبؤ بمستقبل هذا الحاضر، بالإضافة إلى الرؤية النقدية من الجيل اللاحق لكل موجة للجيل السابق عليه.

* الهوامـــش:

(1) Agens Heller: Existentialism, Alienation, Postmodernism; "Cultural Movements as Vehicles of Change in the Patterns of every day life"; in "A Post Modern Reader", eds Joseph Natoli and Linda Hutcheon, State University of New York Press, 1993.p. 497.

(2) Ibid.

(٣) ميشيل تومبسون وريتشارد اليس: نظرية الثقافة، ترجمة: على سيد، مراجعة وتقديم: الفاروق زكى، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد (٢٢٣)، يوليو ١٩٩٧م، ص٣٦.

(4) Concise Routledge, Encyclopedia of Philosophy; London and New York. First Published 2000 by Routledge. p. 185.

(٥) سامى أدهم: تشميل ما بعد الحداثة "الفلسفة الصنعة؛ الآلة المفكرة، المعلوماتية، الذكاء الصنعى"، دار كتابات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص٥.

(6) Pauline Marie Rosenau: Post-Modernism and social Sciences, "Insights, Inroads, and intrusions". Princeton University Press, Princeton, New York, 1992. p. 62.

(٧) المرجع السابق، ص ص ٥-٦.

(8) Leslie Sklair: Social Movements and Global Capitalism; in "The Cultures of Globalization". Edited by Fredric Jameson and Masao Miyoshi. Duke University Press; Durham and London, 1998. P. 293.

(9) Ibid. p. 294.

(١٠) كافين رايلى: الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات. القسم الثانى، ترجمة: عبد الوهاب المسيرى، هدى حجازى، مراجعة: فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد (٩٧)، يناير ١٩٨٦م، ص ص ٣٦٣ - ٣٦٥.

(١١) محمود رجب: الاغتراب، منشأة المعارف بالإسكندرية، الجزء الأول، ١٩٧٨م، ص ٦٨.

(12) Agens Heller: Existentialism, Alienation, Postmodernism. P. 498.

(13) Ibid.

(١٤) محمد سبيلا: الحداثة وما بعد الحداثة. دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، ص٧٩.

(15) Ibid.

(16) Ibid.

(17) Ibid.

(18) Ibid.

(١٩) كافين رايلى: الغرب والعالم، القسم الثانى، ص ٣٥٧.

(20) Robert B. Pippn: Modernism as a Philosophical Problem (On the Dissatisfactions of European High Culture). Basil Blackwell, INC. Cambridge, U.S.A, 1991.p. 98.

(21) Ibid. p. 101.

(22) Agens Heller: Existentialism, Alienation, Postmodernism. P. 498.

(23) Ibid. pp. 498-499.

(24) Ibid. p. 499.

(25) Ibid.

(26) Ibid. pp. 499-500.

(27) Ibid. p. 500.

(28) Ibid.

(29) Thomas Docherty: After theory "Postmodernism/ Postmarxism" – Routledge, London and New York, 1990. p. 176.

(30) Agens Heller: Existentialism, Alienation, Postmodernism. p. 500.

(31) Hans Bertens: The Idea of the Postmodern (A History), First published by Routledge, London and New York, 1995. p. 43.

(٣٢) جون ماكورى: الوجودية، ترجمة: إمام عبد الفتاح، مراجعة: فؤاد زكريا. سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد (٥٨)، أكتوبر ١٩٨٢م. ص ٣٦٨.

(33) Agens Heller: Existentialism, Alienation, Postmodernism. p. 500.

(34) Hans Bertens: The Idea of the Postmodern (A History). p. 48.

(٣٥) عبد الرازق الداوى: عن ملامح الفكر الفلسفى فى مطلع القرن الحادى والعشرين. مجلة (فكر ونقد)، الرباط، المغرب، السنة الأولى، العدد الأول، ١٩٩٧م، ص ٢٧.

(36) Agens Heller: Existentialism, Alienation, Postmodernism. p. 500.

(37) Fredric Jameson: Postmodernism, or the Cultural Logic of Late Capitalism, London, Verso, 1991. p. 26.

(38) Agens Heller: Existentialism, Alienation, Postmodernism. pp. 500-501.

(٣٩) كافين رايلى: الغرب والعالم، القسم الثانى، ص ٣٦٨.

(40) Joanna Hodge: Feminism and Postmodernism; in (The problem of Modernity); Edited by Andrew Benjamin. First published in paperback by Routledge, London and New York, 1991. p. 71.

(41) Agens Heller: Existentialsm, Alienation, Postmodernism.p. 501.

(42) Ibid.

(٤٣) جان بول سارتر: دفاع عن المثقفين، ترجمة جورج طرابيشى، منشورات دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٣، ص٩٦.

(44) Ibid.

(٤٥) محمود رجب: الاغتراب، ص ٩١.

(46) Ibid. pp. 501 – 502.

(47) Hans Bertens: The Idea of the Postmodern (A History), p. 52.

(48) Ibid. p. 53.

(49) Ibid.

(50) Agens Heller: Existentialism, Alienation, Postmodernism. p. 502.

(٥١) المرجع السابق، ص ٢٧.

(52) Ibid.

(53) Ibid.

(٥٤) سارتر: دفاع عن المثقفين، ص ١٥٧.

(55) Jim Collins: Post-Modernism as Culmination; in (The Post-Modern Reader); Edited by Charls Jencks. Academy Editions-London / st Martin's Press, New York, 1992. p. 97.

(56) Ibid. 99.

(٥٧) عبد الرازق الداوى: عن ملامح الفكر الفلسفى فى مطلع القرن الحادى والعشرين، ص٢٨.

(58) Bary Smart: Postmodernity. Routledge, London and New York, 1993. p. 49.

(59) Ibid. p. 50.

(60) Ibid. p. 53.

(61) Ihab Hassan: Pluralism in Postmodern Perspective; in (The Post-Modern Reader); Edited by Charls Jenks. p. 201.

(٦٢) كافين رايلى: الغرب والعالم، القسم الثانى، ص ٣٤٨.

(63) Concise Routledge; Encyclopedia of Philosophy. p. 185.

(٦٤) المرجع السابق، ص ٣٧١.

(65) Fredric Jameson: Postmodernism, or the Cultural Logic of Late Capitalism. p. 36.

(66) Agens Heller: Existentialism, Alienation, Postmodernism. p. 504.

(67) Susan Rubin Suleiman: Feminism and Postmodernism; in (The Post-Modern Reader) Edited by Charls Jencks. p. 321.

(68) Ibid.

(69) Hans Bertens: The Idea of the Postmodern.p. 211.

(70) Ibid.

(71) Agens Heller: Existentialism, Alienation, Postmodernism. p. 504.

(72) Ibid. pp. 504 – 505.

(73) Ibid. p. 505.

(74) Ibid.

(75) Bary Smart: Postmodernity. p. 73.

(76) Robert B. Pippin: Modernism as a Philosophical Problem. p. 143.

(77) Ibid. p. 144.

(78) Agens Heller: Existentialism, Alienation, Postmodernism. pp. 505 – 506.

(79) Ibid. p. 506.

(80) Ibid.

(٨١) محمد سبيلا: الحداثة وما بعد الحداثة، ص ص ٧٩ – ٨٠.

(٨٢) كافين رايلى: الغرب والعالم، القسم الثانى، ص ٣٧٢.

(83) Ibid. p. 506.

(84) Ibid.

(85) Hans Bertens: The Idea of the Postmodern (A History); p. 213.

(86) Pauline Marie Rosenau: Post-Modernism and the social Sciences; p. 141.

(87) Agens Heller: Existentialism, Alienation, Postmodernism. p. 507.

(88) Ibid.pp. 507 –508.

(89) Ibid.p. 508.

(90) Ibid.

(91) Ibid.

(92) Joanna Hodge: Feminism and Postmodernism; in (The Problem of Modernity), p. 76.

(93) Ibid. p. 77.

(94) Ibid.

(95) Ibid. p. 78.

(96) Susan Rubin Suleiman: Feminism and Postmodernism; in (The Post-Modern Reader), p. 325.

(97) Agens Heller: Existentialism, Alienation, Postmodernism. p. 509.

(٩٨) هنرى لوفيفر: نهاية التاريخ، ترجمة: فاطمة الجيوشى، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق ٢٠٠٢، ص ١٧٤.

(99) Ibid.

* مراجع البحث:

أولاً- المراجع الأجنبية:

1- Bertens (Hans): The Idea of the Postmodern (A History), First published by Routledge, London and New York, 1995.

2- Collins (Jim): Post-Modernism as Culmination; in (The Post-Modern Reader); Edited by Charls Jencks. Academy Edition-London/ st Martin's Press, New York, 1992.

3- Docherty (Thomas): After theory "Postmodernism/ Postmarxism" – Routledge, London and New York, 1990. p. 176.

4- Hassan (Ihab): Pluralism in Postmodern Perspective; in (The Post-Modern Reader); Edited by Chrls Jenks. London, New York, 1992.

5- Heller (Agens): Existentialism, Alienation, Postmodernism; "Cultural Movements as Vehicles of Change in the Patterns of every day Life"; in "A Post Modern Reader", eds Joseph Natoli and Linda Hutcheon, State University of New York Press, 1993.

6- Hodge (Joanna): Feminism and Postmodernism; in (The problem of Modernity); Edited by Andrew Benjamin. First published in paperback by Routledge, London and New York, 1991.

7- Jameson (Fredric): Postmodernism or the Cultural Logic of Late Capitalism, London, Verso, 1991.

8- Pippin (Robert. B): Modernism as a Philosophical Problem (On the Dissatisfactions of European High Culture). Basil Blackwell, INC. Cambridge, U.S.A, 1991.

9- Rosenau (Pauline Marie): Post-Modernism and the social Sciences, "Insights, Inroads, and intrusions". Princeton University Press.

Princeton, New York, 1992.

10- Sklair (Leslie): Social Movements and Global Capitalism; in "The Cultures of Globalization". Edited by Fredric Jameson and Masao Miyoshi. Duke University Press; Durham and London, 1998.

11- Suleiman (Susan Rubin): Feminism and Postmodernism; in (The Post-Modern Reader) Edited by Charls Jencks. London, New York, 1992.

ثانياً- دوائر المعارف الأجنبية:

12- Concise Routledge, Encyclopedia of Philosophy; London and New York. First Published 2000 by Routledge.

ثالثاً- المراجع العربية:

١٣- أدهم (سامى): تشميل ما بعد الحداثة "الفلسفة الصنعة؛ الآلة المفكرة، المعلوماتية، الذكاء الصنعي"، دار كتابات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

١٤-رجب (محمود): الاغتراب. الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية، الجزء الأول، ١٩٧٨م.

١٥- سارتر (جان بول): دفاع عن المثقفين، ترجمة جورج طرابيشى، منشورات دار الأداب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.

١٦- سبيلا (محمد): الحداثة وما بعد الحداثة. دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

١٧- لوفيفر (هنرى): نهاية التاريخ، ترجمة: فاطمة الجيوشى، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق، ٢٠٠٢م.

رابعاً – المجلات وسلسلة المعارف العلمية:

١٨- الداوى (عبد الرازق): عن ملامح الفكر الفلسفى فى مطلع القرن الحادى والعشرين، مجلة (فكر ونقد)، الرباط، المغرب، السنة الأولى، العدد الأول، ١٩٩٧م.

١٩- تومبسون (ميشيل) وآخر: نظرية الثقافة، ترجمة: على سيد، مراجعة وتقديم: الفاروق زكى، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد (٢٢٣) يوليو ١٩٩٧م.

٢٠- رايلى (كافين): الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات، القسم الثانى، ترجمة: عبد الوهاب المسيرى، هدى حجازى، مراجعة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد (٩٧)، يناير ١٩٨٦م.

٢١- ماكورى (جون): الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح، مراجعة: فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد (٥٨)، أكتوبر، ١٩٨٢م.